الفصل الثانى

الدين اليهودى فى القرون الوسطى

١ ـ نشأة القابالا وتصنيف الشولحان آروخ :

جاءت ومضت قرون ، واليهود لم يزيدوا على التلمود شيئا سوى التعليقات العميقة . ومن الناحية الدينية ، ظلوا متمسكين بالقانون كما تبلور فى التلمود ، يدرسونه ويقلبون صفحاته ، فيجدون فيه كل ما يريدون ، ولا يتخطونه فى تفكيرهم قيد أنملة . وكثيرا ما خاطوا حول النصوص الخرافات والخزعبلات وأعمال السحر وأقواله سعيا وراء التحرر من نير التاريخ . وكثيرا أيضا ما وقع اليهود خلال القرون الوسطى تحت سطوة المشعوذين منهم الذين استغلوا تطلعهم الى الخلاص والعودة لاسرائيل ، معلنا كل واحد منهم أنه هو المسيح المنتظر . وكان أهم مظاهر هذا التخاذل والانحطاط الفكرى القابالا والشولحان آروخ .

انتقلت عدوى التصوف الغالى فى المذهب الغنوصى ، فى الاشراق والباطنية والحروفية والأعدادية ، أو (Numerology) ، والسحر ، أى (Alchemy) الى اليهود . ورأى الكثير من اليهود فى هذه المذاهب خلاصا لا من الاضطهاد المسيحى فحسب ، بل من التعصب المتناهى الذى كان يبديه رجال الدين منهم للقانون ، ومن مطالبتهم الناس بالانصياع الى أحكامه وتطبيقها بحذافيرها . ولذلك ، راجت المذاهب الصوفية بينهم رواجا كبيرا . وأهم هذه المذاهب هو المذهب المعروف بالقابالا .

يعتبر كتاب الخلق الذى أنتجه التصوف اليهودى أهم الكتب

اليهودية اطلاقا بعد التلمود • وقد نسب هذا الكتاب الى ابراهيم وعقيبا وغيره من الربابنة فى العصر التلمودى • ولكنه وجـد مدونا فقط فى القرن التاسع عندمـــا ألف سـفاديا جـارون تعليقا عليه ، فبدل المنطق الأرسطوطالى ، والحكم العقلى ، فسر هذا الكتاب خلق العالم كتجمع عفوى لبعض الحـروف والأعـداد الاثنى والثلاثين (Sephiroth) التى أسماها « طرق الحكمة » ، وجعل لكل من هذه الطرق قوى فعالة فى تاريخ البشر والعالم • وكذلك اتبعت جميع مؤلفات ابراهيم أبى العافية نفس المنهاج الفكرى • ونشر موسى الليونى كتاب (Zohar) « الاشراق » فى القرن الثالث عشر مدعيا أن محتوياته وحى من شمعون بن يوحاى أحد ربابنة القرن الثانى • الا أن أتباعه أبوا الا أن ينسبوا الكتاب الى النبى موسى بالذات ، بل أنهم ادعوا أن موسى هو الاله الذى سيحاكم البشر يوم البعث • والقانون فى نظر كتاب « الاشراق » ذو مستويين : ظاهر وباطن ، مما شجع اليهود على تلفيق أية معان يريدونها والصاقها بالقانون •

وفى اتجاه معاكس للتصوف ، أخذ يوسف كارو سنة ١٥٥٥ يصنف دليلا للحياة مبنيا على قوانين التلمود وشروحه ونشره سنة ١٥٦٧ وأسماه « شولحان آروخ » • وكان هذا الكتاب بمثابة قائمة يرجع اليها فى كل كبيرة وصغيرة ، من قبل الرجال والنساء والأطفال فى كل ما يخص أمور الحياة • فهو تلمود مصغر لا يقبل الجدل ولا المخالفة ولا التفسير ، قبله اليهود كأنه مفتاح الخلاص وعذروا أنفسهم من عناء البحث والدرس ، بل من عناء الفهم لدينهم وقانونه وراحوا يقيسون كل كبيرة وصغيرة بهذا المختصر المسهل • فأصبح تفكيرهم ميكانيكيا لا حياة فيه ، وأصبحت حياتهم جافة لا قيمة فيها سوى المادة والبيولوجيا •

***

٢ ـ الجيتو وأثره فى الدين (١) :

اضطهد المسيحيون اليهود أشد الاضطهاد . ولم يعترفوا لهم بأية حقوق مدنية . اذ أقصوهم من جميع العلاقات الاجتماعية بين المواطنين . لذلك لم يكن اليهود ليتأثروا بالحركات الفكرية والسياسية والعلمية والفنية التى عملت فى المجتمعات الأوروبية حولهم . ومن الناحية الدينية ، كان هم الكنيسة المسيحية تفريق اليهود عن المسيحيين والحفاظ على هذا التفريق . وكان قسيسوها ، من البابا حتى قس القرية يحملون على كل من تعامل مع اليهود من رعيتهم تعاملا سافرا . كما أن المجالس البلدية كانت تحذو حذو مجلس رافينا فى ايطاليا حيث قرر سنة ١٣١٧ « أنه بالرغم من سماح الكنيسة لليهود بالبقاء فى الديار المسيحية ، يجب ألا يسمح لهم (أى اليهود) بأن يؤذوا المسيحيين . ذلك لأنهم يردون الحسنة بالسيئة والصداقة بالاحتقار والعداء . ولهذا ، وبما أن فضائح عديدة حصلت بسبب تمازج اليهود بالمسيحيين فان المجلس الخاص لهذه المقاطعة والمجتمع منذ .... قرر أن على رجال اليهود وضع دائرة من القماش الأصفر على ظهورهم ، وعلى نسائهم وضعها على رؤوسهن ، كى يتسنى للكل تمييزهم عن المسيحيين (٢) .

أما النظام الاجتماعى المقرون بانفصال اليهود عن المجتمعات الأوروبية فهو الجيتو . لا شك أن هذا النظام قديم وسابق لقوانين الاقامة الاجبارية فى الجيتو التى سنها الأوروبيون . فمن المسلم به أن يميل أبناء الدين الواحد والثقافة الواحدة الى السكن بالقرب من بعضهم بعضا . الا أن النظام لم يعمل به كنظام قبل القرن الحادى عشر . فمدينتا

---

(١) قيل ان كلمة (Ghetto) اشتقت من الكلمة الايطالية (Ghetto) أى « مسكب المدافع » اشارة الى الحى المجاور لهذا المسكب الذى كان يسكنه اليهود . وقيل أيضا انها مشتقة من كلمة : (Judaca) أى مكان سكن اليهود ، أو من الكلمة العبرية « جت » الواردة فى التلمود بمعنى « الانفصال » .

(٢) Abram Leon Sacher, **A History of The Jews.** New York : Alfred A. Knopf, 1967, p. 251.

ساليرنو وبارى بايطاليا عرف أن فيهما جيتو منذ ذلك الوقت . أما مدينتا طليطلة وقرطبة فى أسبانيا فقد صدر مرسوم ملكى بعد احتلاله من قبل المسيحيين بتأسيس جيتو فيهما يقول : « على جميع اليهود والعرب فى كل مدينة وبلدة وقرية وناحية فى المملكة ... أن يتجمعوا ويسكنوا فى مناطق مخصصة لهم ، وأن لا يختلطوا بالمسيحيين ، بل عليهم أن لا يجتمعوا معهم تحت سقف واحد » . وما أن جاء القرن السادس عشر حتى اندفعت مدن أوروبا الواحدة تلو الأخرى الى سن قوانين تفرض على اليهود السكن فى الجيتو حتى أنه لم يبق مكان فى القارة كلها يعدون فيه اليهود بين المسيحيين ، أو يختلطون بهم أى اختلاط .

وكان الجيتو فى معظم الحالات يقع فى أوسع وأردأ البقاع ، ولم يكن له منفذ للتوسع رغم ازدياد السكان القاطنين فيه . لذلك كان الجيتو فى كل مكان غاصا بالسكان مما يسهل انتقال العدوى والأوبئة ، واقامة اليهود الاجبارية فيه ومنع اتصالهم بالمحيط المسيحى سهل انتشار أسوأ الأفكار والانطباعات عن اليهود وحياتهم . لم يكن الجيتو معقل الأوساخ والقاذورات المادية فحسب ، بل العيوب الاجتماعية . فكان مركز المومسات وبؤرة الفساد والدسيسة ومقر المتعاملين بالربا . اذن كان يصب اليهودى كل جهده فى الحفاظ على حياته . ولم يكن يهمه أن يحقق سلوكه القيم الأخلاقية وذلك لأنه قرر أن الأولوية فى كل شىء للبقاء وملزماته . وكان اليهودى يدخل فى هذا القرار ويتبناه فيما يتعلق بحياته الشخصية وحياة زوجه وأولاده وبناته حرا ومسئولا . اذ كان يمكنه أن يحارب ويموت أو يتنصل عن دينه الموروث **أو يهاجر الى الشرق الاسلامى حيث لا اضطهاد ولا تفرقة عنصرية .**

أما المسيحيون فكانوا ينظرون الى اليهود نظرة ملؤها الازدراء والكراهية . وكان يسهل عليهم اتهام اليهود بالخيانة . فالولاء الوطنى لم يكن فى ذلك العهد للبلاد بل للأمراء وللملوك . ومن السخف أن ينتظر من اليهود اعطاء ولائهم لجلاديهم ومعذبيهم الشخصيين . وساعد الجيتو بمنعه الاتصال بين الشعبين اليهودى والمسيحى على الصعيد الفكرى ،

على انتشار وتضخيم الأكاذيب المغرضة عن سحريات وشيطنة اليهود وعن وحشيتهم وغدرهم ، وان كان الكثير من هذه التهم فى محله . كذلك ، نتج عن انفصال اليهود الفكرى أنهم لم يتعلموا لغات المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها . اذ كان للجيتو لغته الخاصة ، وهى المسماة (Yiddish) . وهى خليط غير منسق من العبرية والألمانية والبولندية والروسية وغيرها من لغات أوروبا . هذا عند اليهود الأوروبيين أو الاشكناز . أما ما يقابل الـ (Yiddish) عند اليهود الشرقيين (أى النازحين من الأندلس أو الشرق الى أوروبا) فكان يعرف بلغة (Ladino) وهى خليط من العبرية والأسبانية .

ويرجع نظام الجيتو الى حجة لاهوتية تمنطق بها المسيحيون فى اضطهادهم لليهود والحكم عليهم بالمعيشة الانعزالية . فمنذ البداية ، اعتبرت المسيحية الغربية اليهود كعنصر من العناصر المكونة للدراما اللاهوتية المسيحية ، أى أن اليهود هم الذين قاموا بصلب المسيح وقتله ، ثم برفضه كمخلص للبشر . ومهما كان من أمر التبشير المسيحى بينهم ، أو من اكراههم على اعتناق هذه المسيحية الغربية ، فانهم لم يحيدوا عن دين آبائهم . ولهذا اعتقد المسيحيون أنه لا بد لليهود من العذاب فى هذه الدنيا جزاء لهم على عنادهم . ولكن المسيحيين الغربيين لم يكونوا يفرحون بدخول اليهود فى دينهم . فهم أرادوا لهم البقاء كيهود معذبين فى الأرض ليكونوا مثلا وتحقيقا لخسران الراغبين عن المسيح ودينه . لذلك حافظوا عليهم اذ كان فى مقدورهم القضاء على الجنس اليهودى برمته (٣) . ففى روما ، مثلا ، كان السكان

---

(٣) Israel Abrahams, Jewish Life in The Middle Ages. Philadelphia : The Jewish Publication Society, 1986. London : Goldston & Co., 1932.

Malcolm Hay, The Foot of Pride : The Pressure of Christendom on The People of Israel for 1900 years. Boston : Beacon Press, 1950.

James Parkes, The conflict of The Church and The Synagogue. London The Soncino Press, 1943.

اليهود يقعون فى عهدة البابا بالذات ، يحافظ عليهم ويرعاهم برعايته ، كى يكونوا مثلا حيا للشر الذى جاء المسيح ليخلص البشر منه ، وكأنهم اخوان للشياطين على الأرض فى معرض دائم للبشر أجمع (٤) . وبما أن اليهود تفوقوا على المسيحيين كثيرا فى العلوم الطبية والجراحية والكيميائية بسبب اتصالهم بالعرب ونقلهم هذه العلوم عنهم ، حسبهم المسيحيون سحرة وأيقنوا أن ما يقوله لاهوتيوهم من أن اليهود اخوان الشياطين مثبت بالفعل .

كانت هذه النظرة اللاهوتية لليهود بمثابة القاعدة الأولى لجميع العلاقات المسيحية اليهودية وعلى أساسها تنظمت هذه العلاقات ومن أولى مفترضاتها أنه لا يجوز للمسيحى أن يعمل بادارة اليهودى ، وبالتالى أن يكون موظفا أو عاملا عنده ، مما أدى الى عدم تمكن اليهود من امتلاك الأراضى وتوظيف المسيحيين كزارعين فيها . هذا فضلا عن القانون المباشر بتحريم تملك اليهود للأراضى الزراعية . وترتب عن اقصاء اليهود عن الزراعة وتحريم الربا على المسيحيين وعدم اتصالهم ببلاد الشرق أن اضطر اليهود الى مزاولة التجارة والاستيراد بفضل صلاتهم بيهود الشرق أو الأصقاع الغربية الأخرى عن طريق سكانها اليهود ونبغ اليهود فى عمليات التمويل والبنوك التى لم يكن الدين المسيحى يسمح لأتباعه بالتعامل بها . فسيطروا على الأموال ومرافق البلاد ، وكونوا طبقة بورجوازية بين العمال والفلاحين من جهة وبين الملوك وأمراء الاقطاع والنبلاء من جهة أخرى . فكانوا موضع حقد الأولين وكراهيتهم واتهامهم بامتصاص الأموال والأرزاق ، ثم موضع الاضطهاد ونزع الأموال والضرائب من قبل الآخرين . وبالرغم من فرض ضرائب عديدة ومتنوعة عليهم (مثل ضرائب عن الشخص ، والجماعة ، والحماية ، وضرائب مفروضة على كل بيت ، وضريبة سميت بعشاء الملك فى أسبانيا ، وضريبة

---

(٤) Ferdinand Gregorovius, The Ghetto and The Jews of Rome, tr. Moses Hadas. New York : Schocken Book, 1948, p. 45.

تتويجه فى فرنسا ، وضريبة تعيين الموظفين المعنيين بأمور اليهـــود ، وضرائب البناء والهدم ، وضرائب المرور والمساهمة فى الأسواق ، بـل حتى ضرائب فرضت على الموتى وعلى حفر القبور) كانت عائـــدات اليهود فى انجلترا قبل تحررهم تعادل ١ : ١٢ من دخل الأمة الانجليزية كلها وبلغت أكثر من هذه النسبة فى بلاد أوروبا الأخرى (٥) .

الا أن آثار الجيتو فى اليهود لم تكن كلها شرا . فقد ترتبت عليها نتائج حسنة جدا . يرى اليهود أنفسهم أنه لولاها لاضمحل كيـــانهم وساحت هويتهم فى المحيط الأوروبى . ذلك أن حياة اليهود مـــع بعضهم بعضا ضمن جدران الجيتو وتعرضهم للمصير الواحد زكى فيهم شعلة تضامن كانت ولا تزال من أقوى وأوثق العرى التى عرفها الانسان ، لا تفصم حتى بالموت . فقد أدى الجيتو الى نشوء وعى جماعى بين اليهود انحصر فى امتثال اليهودى لرؤسائه وتوليته لشعبه أجل الولاء ، ومحافظته على القانون ـ أى التوراة ـ وتحقيق الواجبات المنبثقة عنها .

كان هذا التطور مجاريا لمتطلبات الزمن . فقد ساد القرون الوسطى الأوروبية نظام الأسر ، اذ لم يكن للفرد مكان يذكر فى المجتمع ســـوى كونه عضـوا فى هـــذه الأسرة أو تلك ممن كان المجتمع يتالف منها ، على طريقـــة القبائـــل فى المجتمـع العربى الجـــاهلى . فالأسرة الأوروبيـــة كانت منشأ الحقوق الفـردية والســـلطة التى لا بـــد من الرجوع اليها فى تطبيق أى حق يقع على الفرد . وكان النظام الأسرى يرتبط أشد الارتباط بالكنيسة بل ويقوم عليها ومنها ، أى أن الأسرة تحصل على هويتها وعلى هويـــة أعضائهـــا من الكنيســـة . فهى القائمة بالتزويج والتعميد والتثبيت ، ولا أسرة ولا وجود بدون هـــذه المراسم . أما اليهودى فهو بطبيعة الحال غير قابل للانخراط فى هذا النظـــام وبما أنه لا بد له من نظام يعيش به ، أملت الحاجة على المسيحيين أن يعترفوا بالنظام المللى .

---

(٥) المرجع السابق ذكره ، ص ٢٥٤ ، راجع كتاب :
Abraham Leon Sachar, A History of The Jews.

لست أدرى منشأ هذا النظام فى الغرب • قد يكون انبثق عن الحاجة انبثاقا تلقائيا ، وقد يكون طالب به اليهود ، وهم يعرفونه حق المعرفة من النظام الاجتماعى الاسلامى ـ على الأقل أولئك الذين خبروا هذا النظام فى البلاد العربية ـ ثم انتشر فى مدن أوروبا • والنظام المللى يرتكز الى اعتبار اليهود كلهم فى منطقة من المناطق كأسرة أو قبيلة واحدة ، وحصر السلطة والحقوق والواجبات فى رئيس أو مجلس يتولى ادارة أمورها ويمثلها لدى القضاء وسلطات البلاد • فالسلطة الأبوية التى كان يتمتع بها رئيس الأسرة فى القانون الرومانى وضعت بموجب هذا النظام فى الشعب اليهودى كشعب ، وتركوا له أمر تنظيم فعاليتها فى المجتمع اليهودى •

وكان هذا الحل لمشكلة الكيان اليهودى فى أوروبا فتحا ومعجزة أنقذته •

فبموجب هذا النظام كان الحاخام أو مجلس الربابنة المسمى « بيت الدين » يأمر اليهود ويحكم ويحاكم ويسجن ويقتل ويجازى باسم ملك البلاد ، فقامت حياة الجيتو كلها ، من مأكل ومشرب ، ومعاملة وأخلاق ، وحياة وممات ، على القانون ـ أى التوراة ـ مقيدة على كل مستوى • فكانت منظمة الشعب اليهودى هى التى تتولى شئون التعليم وتصرف عليه ، وشئون العبادة فتعين الحاخامين والمفتشين ، وشئون الأمن والنظام داخل جدران الجيتو • فهى التى كانت تجبى الضرائب من اليهود لا للأمور الداخلية والخاصة فحسب بل للدولة • اذ كانت حكومة الملك أو الأمير تفرض الضريبة على الشعب برمته ، وكان للمنظمة اليهودية شأن توزيعها وجبايتها • فهذه المنظمة العامة للشعب اليهودى فى منطقة ما كانت المنظمة الأولية التى تخضع لها أو تتفرع عنها جميع المنظمات اليهودية الأخرى • وكان للمنظمة اليهودية فرع قضائى (بيت الدين) يتمتع بسلطة الدولة فى فرض العقوبات والجزاء على الأفراد اليهود • الا أن سلاحه الأكبر ، السلاح الذى كان يعتبر أشد تأثيرا وبطشا من الموت ، هو سلطته بنبذ اليهودى الخارج على طاعته ، فالشخص المنبوذ

فى ذلك الزمن كان لا وطن ولا أمة له ، عرضة للقتل والسبى والنهب بدون رادع أو حماية • وكان أول ما يتعرض له المنبوذ مصادرة جميع أملاكه وماله من قبل حكومة الدولة لاعتباره « كرجل حرب » ، حسب التعبير الاسلامى •

فالجيتو اذن هو أكبر وأهم العوامل التى أدت الى الحفاظ على القانون وبالتالى على يهودية اليهودى • ولم يكن لليهودى اختيار آخر • فاما أن يتنصر أو يعرض نفسه للقتل والسبى والنهب أو أن يطيع أوامر الحاخام ويمتثل لارادة الشعب اليهودى المتجسمة فى التوراة وتعاليمها كما يرويها له الحاخام ويحكم بها عليه أو له • لم يكن للفرد اليهودى أى حق فى تحويل أو تبديل أو تاويل القانون كما رأينا من قبل • ولم يكن له أيضا حق استئناف مـا يحكم بـه بيت الدين ، اذ كانت تقاريره (Takkanoth) سارية المفعول على الجميع ولا مرجع عنها لأى كان •

* * *